النقـد الاجتمـاعى
عنـد بيــرم التــونســى

بقلم: د / يسرى محمد سلامة

النقد الاجتماعى عند بيرم التونسى، يغوص فى أعماق المجتمع المصرى، الذى كان يعانى معاناة واضحة، من الفقر والجهل والمرض، وهم الأعداء الحقيقيون، الذين كانوا يتربصون بالمجتمع، ويفتكون به، ويدمرون آماله، فى غيبة النوايا الطيبة والصادقة للإصلاح، ومن هنا، كان بيرم يرصد كل زاوية، ويبين عن طريق فنه الهادف البناء، نواحى القصور فى كل زاوية من زوايا المجتمع، الذى يئن تحت وطأة الحاجة.

وقد عمد بيرم إلى «اللقطات» الماهرة، من زوايا مختلفة، بعين فاحصة متأنية، تجوب الحنايا والخفايا، وتبحث عن الموضوعات فى الشارع المصرى، فلم يلجأ إلى الحديث عن القضايا الكبيرة، التى تدخله فى متاهات الاقتصاد والسياسة والاجتماع، وذلك ليس عمل الفنان.

وإنما بحث عن الهموم التى تشغل بال الإنسان العادى، وصنع من النماذج البشرية العادية أبطالاً، فهذه «بائعة الفجل» المجاهدة فى سبيل رزق عيالها، القانعة بالرزق القليل:

بيـاعـة الفـجل أحـسـبـهـا من الأبطال

اللى لهم فى المداين يتنصب تمثـال

ويتخذ من ذلك مدخلاً ذكيًّا، لنقد أولئك الرجال الذين لا يعملون:

فين الكرامة اللى ضاعت عندكم يا رجال
ياللى استجبتم وفريتم من الأشغال

ويختار نموذجاً ثانياً للشقاء البشرى، فى صورة طفلة ذات سبعة أعوام، تعمل خادمة، ويتتبعها فى رحلتها من بلدتها الريفية إلى الإسكندرية، حيث تعمل خادمة لعائلة كبيرة تقطن فى الطابق السابع:

سبع سنين عمرها جايبنها من سنباط
تخدم ثلاثين نفر ساكنين فى سابع كاط
هانم عجوزه تسوق الخدامين بسياط
عشان لمونه تنزلها سبع أشواط
وتحطها نص يوم تغسل فى صحون وبلاط
وبيه محال ع المعاش فى حالة اشمئناط
طول النهار تشترى له أدويه ورباط
وواد مدلع تقيل ما ينقطع له عياط
يلزق على الكتف منها لزقة الوطواط
والشهر بريال ويمكن يندفع أقساط!!

لقد جعل بيرم من بائعة الفجل ومن الخادمة، مدخلين للنقد الاجتماعى فهو فى الصورة الأولى يعقد مقارنة بين العمل البسيط المنتج.. والذين استمرؤوا البطالة، وفى الصورة الثانية يبين شقاء الطفولة، التى ينبغى أن تنعم بما ينعم به غيرها فى مثل سنها، غير أن حاجة أهل الريف، هى التى زجت بأطفالهم فى مجال العمل الخدمى العنيف، بأزهد الأجور.

وتستمر رحلة بيرم، فى التقاط النماذج البشرية، من البائسين والمساكين، فيقارن بين منبوذى الهند، ومنبوذى المصريين، وفى جولة سريعة بالشارع المصرى:

يا منبوذين الهند كففوا دموعكم ... دي مصر فيها المنبوذين ملايين
من منبوذين حافيين يلموا سبارس ... ومنبوذين مساحين جزم دايرين
ومنبوذين شبان معاهم شهايد ... حُرم عليهم يدخلوا الدواوين
ومنبوذين نسوان وضابط مباحث ... داير وراهم من كمين لكمين
ومنبوذين في البيت عشاهم فلافل ... في العيد وأيام السنة جايعين

فانتقلت عدسة بيرم بفن واقتدار، بين لمشردين، وماسحى الأحذية، والمثقفين المطحونين تحت أقدام البطالة، والداعرات والذين يعانون من الجوع، لكن الأمر عنده لا يحصر فى مجرد الرصد الفنى الباكى الحزين، وإنما ينتقل إلى التشخيص وبيان الأسباب، فيؤكد أن الاحتلال، هو الذى أدى إلى نضوب الخير:

بلد دهبها انشال ودهبان حالها ... ولسه فيها الإنجليز قاعدين

وهكذا يتدرج بيرم، من النظرة الجزئية للقضية، إلى النظرة الواسعة الشمولية، التى تبين حقيقة المشكلة الاقتصادية، المتمثلة فى انصراف المصريين إلى اللهو والمجون، وترك أمور المال فى أيدى الدخلاء، الذين نزحوا ثروة البلاد، فى غفلة من أهلها:

جرسوينيراتكم وعواماتكم ... منيماكم طول النهار
والنهب داير في منتجاتكم ... من السماسرة ومن التجار
وربح نعيمه وميشيل طعيمه ... وبابور خريمه وعذاب أليم
وليه شريف بيه يقوم لي بدري ... لمصنع الصلب والحرير
ويسعى ليه عالفلوس ويجري ... ويشغل العامل الفقير
ما هي الماهية ـ م الأبعديه ... يوماتي جايه ـ واخير عميم

هذه النظرة الواعية الفاهمة، انفرد بها بيرم تعبيراً عن حس وطنى وقومى، وإدراكاً لقيمة العمل، فى نهوض الأمة واستقلالها اقتصاديّاً فى المقام الأول، فلا قيمة للشعارات المرفوعة، والعبارات الطنانة، دون اقتصاد وطنى مستقل، يعتمد على سواعد المصريين، وبيرم يشير هنا، إلى تسلط الشوام واليونانيين الذين أصبحوا «أخطبوطاً» اقتصاديّاً رهيباً يستنزف الثروات.

فهل نجح بيرم، فى إيقاظ الضمائر.. من غفلتها.. ودق ناقوس الخطر؟

لقد قارن بيرم بصفة دائمة، بين أصحاب الثروات الذين يتمرغون فى النعيم، وينفقون بلا حساب، ويسكنون القصور المشيدة، وقد أرهقتهم أموالهم، فهم يبحثون عن السعادة فى أى مكان، وحياتهم رحلات مستمرة، ليطردوا الملل عن نفوسهم:

في فصل الصيف يفوت بيته ... لراس البر أو لبنان

وفي فصل الشتا يرحل ... من أكتوبر على أسوان

وتستعجب على الإنسان ... بكتر المال يعيش طهقان

لا هو طايق يكون حران ... ولا طايق يكون بردان

أما بيرم الذى يمثل المصرى القانع ببساطته، الذى يمر أمام أبواب القصور المغلقة، فيسألها عن قاطنيها فترد عليه:

تقول يا قصر فين صاحبك ... يقول لك من زمان سافر

في كارلسبار إلى فيشي ... ومن فيشي إلى إيقيان

ويدع بيرم، أولئك الحائرين التعساء، فى قصورهم المهجورة، ليتجول بين غرفات بيته الصغير، بحثاً عن الدفء فى الشتاء، والنسمة العليلة فى الصيف:

أحب البرد في طوبه ... وأحب الحر في بؤونه
وعندى للشتا أوده ... وليلة الحر بلكونه

وهكذا يكون «التصوير المعماري» عند بيرم شكلا جديداً من أشكال النقد، لطبقة مستنزفة مستغلة، وهو نقد لا يقوم على الشعارات أو العبارات الطنانة أيضاً، وإنما يقوم على الرسم بالكلمات، فهذه القصور تحكى، وهذه رموز البلاد الأوروبية، وتقابلها من ناحية أخرى، صورة البيت المصرى البسيط، وشتان ما بين الصورتين، فالهوة كبيرة، والفجوة واسعة.

ولقد أدرك بيرم خطورة فئة السماسرة الطفيلية، التى أثرت ثراء فاحشاً، دون أن تبذل جهداً حقيقيّاً، أو أن تقدم للوطن عملاً نافعاً:

لاهو بيحرت ولا بيبدر ... ولا بيحصد ولا بيجمع
وسيط بين البينين يدخل ... وهوه السيد المالك
وذا السوق ارتفع سالك ... وذا السوق انضرب سالك
وغير مسؤول عن التالف ... وغير مسؤول عن الهالك
وبالتليفون يجيب مليون ... وميت مليون ولا يشبع
وله يوم الصعود فرصه ... وله يوم النزول فرصه
وهدم بيوت وخلق تموت ... بحسره وهو متمتع!

ويبين بيرم هوية هذه الفئة، فإذا بها من الدخلاء الذين شيدوا العمارات الضخمة فى أرقى الأماكن:

تشوف عمارات شققها مئات ... وكل عماره وعماره
من الأعيان لها سكان ... تزيد عن أيها حاره
عمارات مين ياعم ياسين ... عمارات مسيو دواره
مفيش في مصرنا شكله ... ولا أشطر ولا أجدع!

فإذا وقف بيرم مشدوهاً أمام عمارات مسيو دواره، يقف أيضاً متحسراً أمام صورة المنازل التى تنهار فوق رءوس ساكنيها، فى ضوء نقده المر لشخصية المقاول النهم، الذى تمتلئ عمامته الزرقاء باللؤم والخسة، ويغطى الوشم صدغه ويده، وحافظة نقوده متخمة، وهو يدعى الخبرة فى الاقتصاد، وهو فى الحق خبير فى غش الجبس والأسمنت، وفى زمن قياسى يعلو البناء:

مقاول عمته زرقه   وكل اللؤم ماليها
في صدغه ميه وحداشر   وإيده الوشم هاريها
ومحفظته على صدره   ووقة بنكنوت فيها
وداير يشترى خرابات   ويهدمها ويبنيها
في علم الاقتصاد دكتور   وفي الأوراق وفي العمله
بدال الجبس والأسمنت   هات يا تراب ويا رمله
وفوق السقف يبدرها   وما بين الحيطان يملا
في شهر زمان يا عم فلان   سبع طبقات يعليها

حتى إذا ازينت البناية، وأخذت زخرفها الخارجى، لم تصمد أمام أمطار الشتاء فى نوفمبر، أو حتى أمام طلقات مدفع الإفطار، فإذا بها تنهار رأساً على عقب:

فراندتها تسر العين   ويا ما أحلا شبابيكها
ياخدها المشتري في أبريل   وفي مايو يشيكها
ولما تنزل الأمطار   في نوفمبر تفرتكها
ويضرب مدفع الأفطار   تجيب عاليها واطيها

ويعمد بيرم إلى الهجوم المباشر والعنيف، عىى المجرم المجهول، الذى بنى هذه البنايات «الورقية» بلا ذمة ولا خبرة و«لا مراقبين ولا محاسبين».

وهنا يأتى دور المجتمع، الذى ينبغى أن لا يدع المجرم يفلت بجريمته وبل يمهد له السبيل ـ للأسف الشديد ـ للحصول على الرخصة، ويتخذ ذلك سبيلاً للثراء السريع ببيع هذه المساكن أو «الكلاكيع» ويتخلص منها عقيب بنائها لأنه ـ أى السنكوح المجرم ـ يعلم ما تحتوى من بلوى وخراب ودمار:

عشر عمارات في المنيل ... وعشرين بيت في شبرا
بناها المجرم المجهول ... بلا ذمه ولا خبره
ولا مراقبين ولا محاسبين ... يحاسبوه ع اللي راح يجرى
ياما مقاولين ـ فرج يا أمين ... واوعى تقول وأنا مالي
بتسوع جنايات بنوا بنايات ... وعقبالك وعقبى لي
يحبك سنكوح وأنت تروح ... عاطي له الرخصة طوالي
وهو يبيع في دي الكلاكيع ... ويخلص من بلاويها

وكما كانت إحدى عينى بيرم على المدينة، كانت الأخرى على القرية المصرية البائسة، وكان يمر على الحقول فيرى:

فايت على القطن كان لسه ورق عالعود
واقفه عليه العذارى تحرسه من الدود
فقلت قادر إلهى يجعلك فى صعود
ون كنت مخلوق عفيفى يقلبك فرى جود

وينبه بيرم إلى الدور الحاسم، الذى يلعبه محصول القطن، فى الاقتصاد الوطنى، ويحذر الفلاح المصرى من الأجنبى، الذى يحمل فى يده «شنطة» للإيقاع بالفلاحين:

حاسب من اللى دخل بالشطنه يا فلاح

جايب شبك من بلاده والجدع طراح

وتبص آخر يناير تلتقيه تمساح

وتبقى جلسه ومحامى ومحضرين وشهود

ويتحمس بيرم للوليد الوطنى العملاق «بنك مصر» الذى كان على وشك الظهور، فيدعو الفلاح المصرى إلى دخول النقابات الزراعية، وتشجيع البنك الوطنى ـ بنك مصر ـ الذى سيعاونه فى ديونه، وأن يحذر تقلبات البورصة وألاعيب السماسرة، وأن يترك المعاملات مع بناكى وخريمه:

ادخل نقابات الزراعة وهى دى تعينك

وبَدِّل البنك مصرى ينقضى دينك

وخد من البورصه بالك تنفتح عينك

البنط طالع ونازل والسماسره قرود

أمسك لهم يفتح الله واشترى الأسهم

وسيب بناكى وخريمه يوجعوا راسهم

والله الخواجه إن زادت له فتلتين قاسهم

اقفل يا شيخ المخازن من عامود لعمود

ولم يكن نقد بيرم للمجتمع المصرى، موجهاً للقضايا الاقتصادية، وقيمة

العمل المنهارة لدى المصرى، واستيلاء الأجنبى على مقدراته فقط، وإنما نقد سلوكيات الأفراد فى الشوارع، واعتبر هذا جزءاً خطيراً من تربية الشعب، ودليلاً على تقدمه، ومرآة لتفكيره وحرصه على بلده، وقارن بين سلوكيات المصريين، وسلوكيات الغرب، واستحسن ما يقوم به الغربيون، وهو حين يأتى إلى حضارة يأخذ منها جمالياتها.

حكايه يا شباب النيل	**عارفها كل متنور**
يقولوا كل شيء اليوم	**جماله كله في المظهر**
وفي وسط الطريق لازم	**عيوبنا كلها تستر**
وكل أديب وكل لبيب	**من الفعل القبيح يحذر**

ثم يتبع هذه السلوكيات واحدة واحدة:

أفندى ظريف ودمه خفيف	**وباطه تحته خصايه**
بيطويها ويفردها	**كأنه حامل الرايه**

هذا سلوك «الأفندى المطربش» الذى ينبغى أن يكون قدوة.

أما الآخرون من عامة الشعب:

ودا بياكل بلح أمهات	**ودا بياكل دره نيلي**
ودا شاري بصاغ ترمس	**وفوقه حلبه ومقيلي**
وواحد يرمي قشر الفول	**ويقول لك مهوش فولي**
وأخرتها تشوف الأرض	**منظر يخفى دا المنظر**

ومظاهر الفوضى، فى الشارع المصرى كثيرة، تقض مضجع بيرم، ويأسف لهذا الاستهتار والانهيار السلوكى، فهذا يرسم على الحائط بالطباشير، وذاك

يطلق النكات اللاذعة، وهذا يزاحم بمنكبه، وذاك يزاحم بدراجته، وهكذا يختلط الحابل بالنابل، وهى فى عرفه، جرائم يعاقب عليها عند الغربيين:

جرائم أهل أوروبا   عليها يكتبوا محضر

ويقارن بين الحديقة المصرية، والحديقة الأوروبية، بأسلوب لاذع ساخر:

جناين لندره وباريس   جمالها في العيون جنه
تيجى لها الناس بأطفالها   عشان ترتاح وتتهنى
ياخوفي ياهوه من السواح   إذا شافوا جناينا
علب سردين وقشر فسيخ   على سفح الحشيش لخضر

ويتناول مفهوم الحرية الفردية، فهو لا يحد من حرية الفرد فى أن يفعل ما يشاء، ولكن فى منزله وليس على حساب الآخرين:

يقول أنا حر.. طبعاً حر   لكن حر في المنزل
تمص قصب تقشر فول   تطلع للسما وتنزل

وفى مجال التربية السلوكية أيضاً، لا ينسى بيرم دور المرأة الأم، ويأتى بالصور، التى تعبر عن جهل بعض الأمهات، فى إدارة شئون المنزل وتدبيره، فلا يجوز المبالغة فى الحنان الجاهل، بمضغ الطعام للطفل أو النفخ فى الأكل، أو شراء الحلوى، من الباعة الجائلين:

ما تمضغيش للعيال الأكل بسنانك
والنفخ فى الأكل سم فى عرض إيمانك
مره جهوله حماره خصلتك سوده
ما تسمعيش الكلام تنشكى فى لسانك

إن عـــيط الواد وقـــال لك أشـــتـــرى نعناع
وحـــمـــصـــيـــه ونبـــوت الـغـــفـــيـــر وبتـــاع
إوعـــاك تطاوعى كـــلامـــه واعـــملى طرشـــه
دا الســـــقم والسم أصله من إيد البـــيــــاع

ويحذر بيرم من تربية الطفل المصرى، على حكايات العفاريت والغولة، وأثر ذلك على تخلف التفكير:

وبطلى قـــولة العـــفـــاريت والغـــوله
ليطلع الواد عـــبـــيط والبنت مـــهـــبـــوله
مـــا تعـــرفـــيش الكلام ده يتلف الأولاد
ويفـــرجـــوكى المرار وتعـــيـــشى مـــخـــبـــوله

هذه الرقائق اللطيفة عند بيرم، إنما تكشف عيوباً جسيمة فى جسد المجتمع، وخللا جسيماً فى التربية الاجتماعية، لا ينبغى التقليل من شأنه.

فالأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع، فإذا صلحت صلح، وإذا فسدت انهار بناؤه.

وقد أدرك بيرم ثقل الضرائب التى يفرضها المجلس البلدى، الذى جعل القلوب فى الأشجان والكمد، فصور هذا الحب المفقود بينه وبين ذلك المجلس:

قـــد أوقع القلب فى الأشـــجـــان والكمـــد
هوى حـــبـــيـــب يســـمى المجلس البلدى

فهو يقسم معه الرغيف:

إذا الرغـــيـــف أتى فـــالـنصف آكله
والنصف أجـــعله للمـــجلس البلدى

وإذا رزق بالقرشين، فواحد له والثانى للمجلس البلدى:

أقـــــول حـــــتى لو أنى فى الطريق أرى
قـــرشـــين ذا لى وذا للمـــجلس البلدى

وكان أمه أوصته بأُخوة المجلس البلدى أيضاً:

كـــــأن أمى بَلَّ الله تربتـــــهـــــا
أوصت وقـــالت أخـــوك المجلس البلدى

ولذلك فهو يقاسمه قدر الطعام:

ولم أذق طعم قـــدر كنت طابخـــهـــا
إلا إذا ذاق قـــــبلى المجلس البلدى

ويشاركه كسوة عياله صيفاً أو شتاء:

ومـــا كـــسوت عـــيالى فى الشـــتاء ولا
فى الصـــيف إلا كـــسوت المجلس البلدى

والمجلس يلاحقه بخطابات يهزأ بها بيرم:

عندى قـــســائم أشـــواق مكدســـة
وكلهـــا من حـــبـــيـــبى المجلس البلدى

حتى لقد أصبح يخشى الزواج، فربما يسلب منه عروسه أيضاً:

أخـــشى الزواج إذا يوم الزفـــاف أتى
يبـــغى العـــروس صـــديقى المجلس البلدى

لقد أصبحوا يعدون على الناس أنفاسهم:

أمشى وأكتم أنفاسى مخافة أن
يعدها عامل فى المجلس البلدى

وهم واللصوص سواء:

وإن جلست فجيبى لست أتركه
خوف اللصوص وخوف المجلس البلدى؟!

ولم يرحم المساكين والفقراء:

يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدى

ويبلغ قمة نقده وسخريته برجال المجلس البلدى:

هذا يقل المنايا فى حقيبته
وذا ينفذها قسراً بعدته
ثلاثة قد أقاموا تحت إمرته
من كل جلف قفاه نصف جثته
كأنه صدغ باب المجلس البلدى

ولكن النقد البناء لبيرم، لم يكن موجهاً فقط إلى السلطة التنفيذية العرجاء، وإنما كان ـ فى ذات الوقت ـ موجهاً إلى الطوائف التى يدافع عنها، والتى يطاردها رجال المجلس البلدى بالمكوس والضرائب، وهى طائفة الباعة، الذين يعمدون إلى الغش، فكما دافع عنهم، انتقد سلوكياتهم فى خداع الناس:

ليـه يا وليـه يا فـرارجـيـه | يا مـرابطه في سـوق لتنين
كنتي زمـان قـبل التـسـعـيره | تبـيـعي الفـرخـه جـعـانة يومين
ليـه يالئـيمـه بقـيتى رحـيمـه | تحـشي الحـوصلة لبـاب رطلين
وزلط ياما ف كل حمامه | ودكـر البط دره قـدحين
خـافـوا من الله يا عـبـاد الله | يام رتيـبـه ويابن أبو عـوف
ياللي السـجن الشـاق مـؤبد | مـا يعلمكم مـعنى الخـوف
ياللي تـراب الدنيـا مـا يشـبع | منكم عين ولا يشـبع جـوف
قلنا وراكم لسـه جـهنم | قلتـوا جـهنم روخـره دي فين!

وهكذا كان نقد بيرم الاجتماعى، غائصاً في أعماق الطبقات، يكشف عن عوراتها ويسعى إلى تعبيد طريق الخير، عن طريق النقد البناء، الذي يبين المرض.. والدواء.

■■■

obeikandl.com